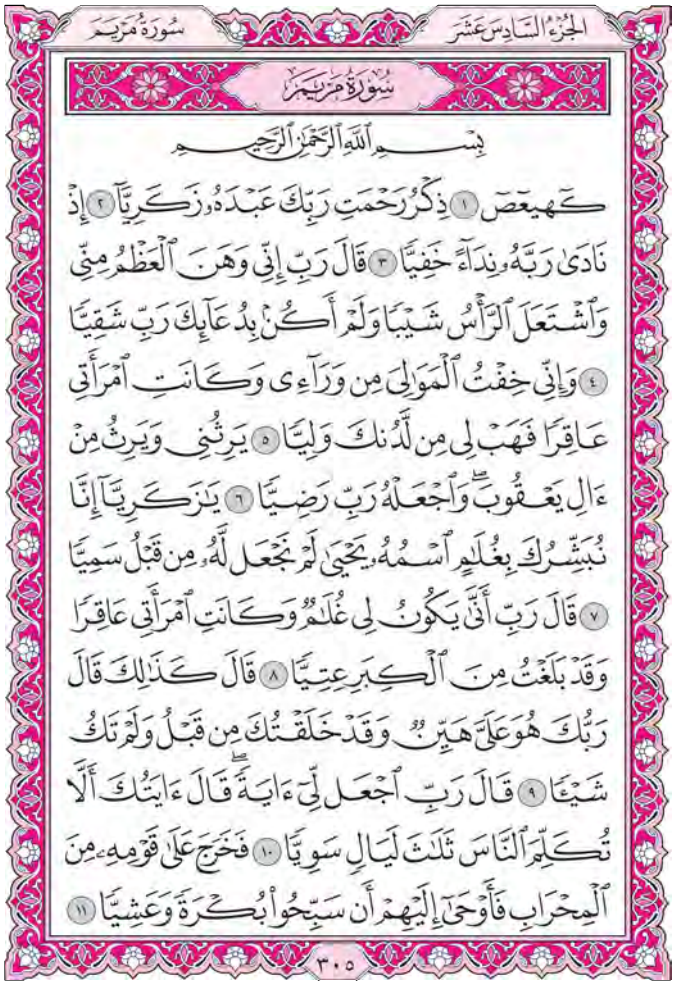

سورة مريم

سورة مريم عليها السلام مكيّة وآياتها ثمان وتسعون آية.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة. وقيل إن هذه الحروف: اسم ثانٍ للسورة.

[٢] يخبر جل وعلا أن هذا الذي سوف نقصُّه عليك يا نبي الله هو ذكر رحمة ربك التي أحاطت بعبده ورسوله زكريا عليه السلام؛ نقصُّه عليك كغيره من القصص التي نقصُّها للاعتبار والاتعاظ والتسلية.

وزكريا عليه السلام من ولد هارون أخي موسىٰ عليهما السلام، وكليهما من ذرية يعقوب حفيد إبراهيم عليهم وعلىٰ نبينا أفضل الصلاة والسلام.

[٣] ثم بين سبحانه أن زكريا عليه السلام لمَّا أحسَّ من نفسه الضعف وخشي الموت، توجه بقلبه إلىٰ دعاء ربه سرًّا تأدُّبًا مع الله جل في علاه، وأتمَّ إخلاصًا له، وقد شجعه علىٰ ذلك قول مريم عليها السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران:٣٧].

[٤] فقال زكريا عليه السلام في دعائه: يارب إني كبرت سنّي، ورق عظمي وضعف، وشاب شعر رأسي بسبب الكِبَر، وأنا رهين فضلك وإحسانك فقد عودتني أن لا ترد لي طلبًا.

[٥] ثم بين زكريا عليه السلام سبب الطلب وعلته: أنه يريد أن يحفظ لأمته دينهم وثوابتهم، وخوفه علىٰ الملة أن يتولاها أحد من أقاربه وعصبته ممن لا يكون أهلًا لها؛ فلا يحسنوا خلافته في اتباعه، ويفسدون ويبدلون عليهم دينهم ومعتقدهم، ثم ذكر مبرر هذا الخوف أنه لن يولد له من صلبه ولد يخلفه؛ لأن امرأته لا تلد خلقة؛ فالعاقر من الرجال والنساء هو الذي لا ينجب ذرية، يعني: عنده مانع خِلْقِيٌّ، ولهذه الأسباب أتوجه إليك يارب أن ترزقني من فضلك الواسع ومن قدرتك التي لا تعوقها أسباب ولا موانع ولدًا من صلبي يخلفني في قومي، ويقيم الحق والعدل؛ فإنني أنا وامرأتي عجزنا عن الإنجاب.

[٦] ثم قال زكريا: واجعل هذا الولد يارب يرثني ويرث آل يعقوب بالنبوة والعمل الصالح، واجعله يارب مرضيًّا عندك وعند المؤمنين.

وقوله: ﴿رَبِّ﴾، فيه تلطف بالسؤال وإثبات الافتقار لله والرغبة إليه.

[٧] وبعد هذا النداء والإلحاح علىٰ الله بشَّر جل وعلا نبيه زكريا بإجابة دعوته، وأخبره أنه رزقه ولدًا سماه يحيىٰ، وأخبر أنه لم يسمَّ أحد بهذا الاسم من قبل، ولا شكّ أن هذه معجزة تمت من عند الله علىٰ زكريا وزوجه، قال تعالىٰ: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ﴾ [آل عمران:٣٩].

والبشارة: هي إخبار الشخص بما يسرّه ويفرحه.

[٨] فلمّا أتت زكريا البشارة توجه إلىٰ ربه وذكر علىٰ سبيل التعجب المعوقات التي تعوق حصوله علىٰ الولد، فقال: يارب كيف يكون لي ولد وأنت تعلم أن امرأتي عجوز وعاقر لا تلد، وأنا شيخ كبير في أيامي الأخيرة.

[٩] فأجابه المَلَك الذي بلَّغه البشارة فقال له: نعم الأمر كما قلت يا زكريا مُتَعجَب منه، ولكن اعلم أن خَلْقَ يحيىٰ مع وجود هذه المعوقات سهل ويسير علىٰ ربك، والدليل علىٰ ذلك أنه خلقك وأوجدك من قبل ولم تكن شيئًا مذكورًا؛ فقدرة الله لا يعجزها شيء أبدًا.

[١٠] ثم طلب زكريا عليه السلام من ربه علامة تدل علىٰ بداية إجابة طلبه، فأوحىٰ الله إليه أن العلامة أنك لا تستطيع أن تكلم الناس ثلاثة أيام، أي: أنك سوف تُحبس عن الكلام وأنت صحيح معافىٰ، ثم رأىٰ الآية وشعر بها عليه السلام فعرف أن امرأته حامل، وطلبه العلم بالعلامة التي تدل علىٰ أن امرأته حامل ليبدأ عليه السلام بالصيام شكرًا لله.

[١١] ثم خرج عليه السلام علىٰ قومه من مكان عبادته، وهو علىٰ حاله التي لا يستطيع فيها الكلام؛ فأوحىٰ إليهم، أي: أشار إليهم أن يذكروا الله ويسبحوه ويصلوا له من الفجر إلىٰ الضحىٰ، ومن العصر إلىٰ المغرب.

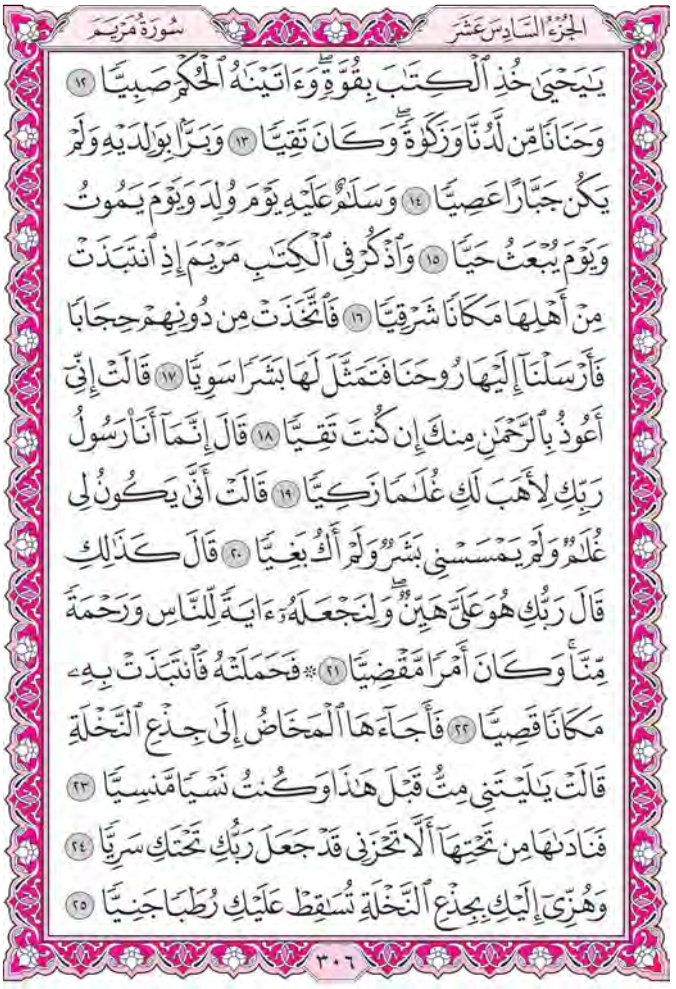

[١٢] ولمّا وُلد يحيى واكتمل نموه واجتاز مرحلة الطفولة وأصبح يفهم التوراة وما يُوحىٰ إليه، ويستطيع إبلاغ الرسالة، أعطاه الله الحكم والنبوَّة صبيًّا، وأمره أن يأخذ التوراة بقوة، أي: بهمة وعزيمة واجتهاد، وأن يكون خير خلف لخير سلف. وقد روي: أن الصبيان دعوه إلىٰ اللعب فقال لهم: «ما للعب خلقنا».

[١٣-١٤] ثم بين سبحانه أنه وهب عيسىٰ عليه السلام ورزقه رحمة ومحبة وحنانًا، وطهَّره من الذنوب والمعاصي، وأنه كان مطيعًا لربه يؤدي أوامره ويجتنب نواهيه. ثم بين سبحانه أنه كان بارًّا بوالديه، لطيفًا معهما، محسنًا إليهما، ولم يكن مستكبرًا ولا ظالمًا ولا متجبرًا ولا عاصيًا لربه سبحانه وتعالىٰ.

[١٥] ثم ختم سبحانه هذه الأوصاف الجميلة التي وصف الله بها يحيىٰ عليه السلام؛ حيث قال: فسلام وأمان من الله من كل ما يسوء يحيىٰ من شيطان أو شرٍّ أو عقاب حين ولادته، وحين موته، وفي قبره، وحين يبعثه الله يوم القيامة.

[١٦-١٧] ثم ذكر جل وعلا لنبيه محمد ﷺ قصة مريم عليها السلام؛ فقال سبحانه: واذكر يانبي الله لقومك قصّة مريم البتول أم عيسىٰ عليهما السلام؛ حيث اعتزلت قومها وتباعدت عنهم إلىٰ جهة الشرق. ثم جعلت بينها وبينهم حجابًا يسترها عنهم، وفي هذا المكان نزل عليها المَلَك وهو جبريل عليه السلام، وتمثل لها علىٰ صورة إنسان تام الخلق. قال الحسن رضي الله عنه: (موضعها الذي اعتزلت به هو مسجد صلاتها؛ لذلك اتخذ النصارىٰ قبلتهم جهة المشرق، كما اتخذ اليهود قبلتهم جهة المغرب؛ لأن الميقات الذي أُنزلت به الألواح علىٰ موسىٰ عليه السلام كان جهة المغرب، وهذا الكلام علىٰ القبلة ينطبق علىٰ المقيم في الشام، أما المقيم في الغرب فكلاهما شرق، أي: كلا القبلتين شرق).

[١٨-١٩-٢٠-٢١] فلمّا رأت مريم عليها السلام جبريل قالت له: إني ألتجئ وأعتصم بالرحمن منك أن تمسني بسوء إن كنت تخاف الله وتخشاه. فأجابها المَلَك مُطَمْئِنًا إيّاها قائلًا: إنما أنا رسول من الله أرسلني إليك لأهب لكِ غلامًا طاهرًا من الذنوب، وخاليًا من النقائص والعيوب. فأجابته متعجّبةً من وجود غلام من غير أب، فقالت: كيف يكون لي غلام، ولم أتزوج زواجًا شرعيًّا، ولم أكُ ممن يعمل الفاحشة؟ فقال الملَك لمريم مُقِرًّا إيّاها علىٰ استغرابها من وجود ولد بغير الطريقة المعروفة: ولكن يامريم ربكِ جل وعلا قال: إن هذا الأمر سهل هيِّنٌ عليه، ثم بين سبحانه أنه خلق عيسىٰ بهذه الطريقة الخارقة للعادة -أي: من غير أب- ليكون آية وعلامة للنّاس يستدلون بها علىٰ قدرة الله، وليعلموا أن الأسباب لا تستقل بالتأثير بذاتها، وإنما تأثيرها يكون بتقدير الله، وأيضًا ليكون رحمة للنّاس إذا أطاعوه وآمنوا به، ثم بين سبحانه أن خَلْقَ عيسىٰ وإيجاده بهذه الطريقة قضاء سابقٌ مقدَّرٌ جفّ به القلم، فلا بد من نفوذه ووقوعه.

[٢٢-٢٣-٢٤-٢٥] ثم أخبر سبحانه أن جبريل نفخ في جيْب مريم فحملت بعيسىٰ كما أراد الله، ولما رأت الحمل اعتزلت به في مكان بعيد عن قومها خشية الفضيحة. ثم بين سبحانه أن مخاض الولادة وطلْق الحمل ألجأها إلىٰ ساق النخلة لتعتمد عليه وتتمسك به من آلام الولادة، ثم قالت وهي علىٰ هذه الحالة: ياليتني متُّ قبل هذا الذي حصل لي ولم أكن شيئًا مذكورًا. فناداها ابنها عيسىٰ أثناء المخاض والولادة؛ ليذهب عنها الحزن فقال لها: لا تحزني ياأماه قد جعل ربك تحتك سريًّا، قيل: إنه يتكلم عن نفسه، وقيل: إنه يتكلم عن الماء الجاري بجانبها. ثم قال لها: وأمسكي ياأماه بجذع النخلة وحرِّكيه يمينًا ويسارًا ليتساقط عليك رطبًا طريًّا لذيذًا نافعًا، والمقصود بذلك: هو العمل بالأسباب. **قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي صاحب أضواء البيان**: أظهر القولين عندي أن الذي ناداها هو ابنها عيسىٰ، وتدل علىٰ ذلك قرينتان: **القرينة الأولىٰ**: أن الضمير يرجع إلىٰ أقرب مذكور إلّا بدليل صارف عن ذلك يجب الرجوع إليه، وأقرب مذكور في الآية هو عيسىٰ لا جبريل؛ لأن الله قال: ﴿فَحَمَلَتۡهُ﴾، يعني: عيسىٰ، ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾، أي: بعيسىٰ، ثم قال بعده: ﴿فَنَادَىٰهَا﴾، فالذي يظهر ويتبادر من السياق أنه عيسىٰ. **والقرينة الثانية**: أنها لمّا جاءت به قومها تحمله، وقالوا لها ما قالوا، أشارت إلىٰ عيسىٰ ليكلموه؛ كما قال تعالىٰ عنها: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِ﴾، وإشارتها إليه ليكلموه قرينة علىٰ أنها عرفت قبل ذلك أنه يتكلم علىٰ سبيل خرق العادة لندائه لها عندما وضعته. **وزيادة علىٰ ما قال شيخنا رحمه الله**: فإن جبريل أجلُّ وأعزُّ من أن يكون تحتها في مثل هذا الوضع.

[٢٦] ثم أوحىٰ الله لمريم علىٰ لسان ابنها عيسىٰ حيث قال: فكلي يامريم من هذا الرطب، واشربي من هذا الماء، وطيبي نفسًا بهذا المولود، فإذا رأيتِ أحدًا من البشر، واستغرب منك هذا الولد فقولي عن طريق الإشارة: إني أخذت علىٰ نفسي لله صومًا، أي: سكوتًا، فلنْ أكلم اليوم أحدًا من النّاس.

[٢٧] ثم جاءت مريم عليها السلام بولدها عيسىٰ وهي تحمله، فلمّا رآها قومها قالوا مباشرة: يامريم لقد جئت بأمر عظيم، كيف لك بهذا الابن بدون زواج شرعي؟

[٢٨] ثم أخذوا في توبيخها وتقريعها قائلين: ياأخت هارون العبد الصالح: ما كان أبوك رجلًا يأتي الفواحش، ولا كانت أمك كذلك! فكيف كنتِ علىٰ غير وصفهما، وجئتِ بما لم يأتيان به؟!!

[٢٩] فلم ترد مريم عليها السلام عليهم بالقول، وإنما أشارت إلىٰ عيسىٰ عليه السلام ليكلموه ويسألوه، فقالوا متعجبين ومنكرين عليها: كيف نكلم هذا الطفل الرضيع الذي لا يزال في المهد؟!!

[٣٠] وهنا حصلت المعجزة التي بهرتهم وأنطق الله عيسىٰ عليه السلام فكان أول ما نطق به أن اعترف بعبوديته لله - بخلاف ما افترت به النصارىٰ بزعمهم أنه إله أو ابن للإله - فقال: إني عبدٌ لله، أعطاني الله الإنجيل، وجعلني نبيًا من أنبيائه.

[٣١] ثم قال عيسىٰ: وجعلني مباركًا عظيم النفع، معلمًا للناس الخير والتوحيد أينما كنت في أي زمان ومكان، وأوصاني بالمحافظة علىٰ الصلاة التي هي من أعظم حقوق الله جل وعلا؛ لأنها اشتملت علىٰ توحيده بالعبادة، وأوصاني بالزكاة التي هي من أجلّ حقوق العباد، وأوصاني أن أحافظ علىٰ ذلك مدة دوام حياتي.

[٣٢] وقال أيضًا: وأوصاني ببر والدتي وأن أُحسن إليها غاية الإحسان، ولم يجعلني الله متكبرًا ولا متعاظمًا، ولا شقيًّا عاصيًا لأوامر ربي؛ بل مطيعًا لله، متواضعًا لعباد الله.

[٣٣] ثم قال: وقد منَّ الله عليَّ بأنْ سلَّمني الله، وأمنني يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم بعثي حيًّا يوم القيامة.

[٣٤] واعلم يانبي الله أن ذلك الموصوف بتلك الصفات هو عيسىٰ ابن مريم، وتلك حقيقة أمره من غير شكّ ولا مرية، بخلاف ما يقول فيه الممترون الشاكّون من المغضوب عليهم اليهود الذين اتهموا مريم عليها السلام بالفاحشة، ومن الضّالين النصارىٰ الذين قالوا: إنه ابن الله - تعالىٰ الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا -.

[٣٥] واعلموا أيها الناس أنه ما كان يصح ولا يستقيم ولا يليق بالله أن يتخذ ولدًا، تنزّه سبحانه وتعالىٰ وتقدّس عن هذا الولد وعن كل نقص وعيب، ثم بين سبحانه أنه إذا قضىٰ أمرًا من الأمور فإن ذلك لا يمتنع عليه ولا يصعب؛ بل إذا قال له: (كن) فإنه يكون مباشرة كما أراد.

[٣٦] ثم قال لهم عيسىٰ عليه السلام: ياقوم إن الله ربي وربكم هو الذي خلقنا ورزقنا وهو الذي يحيينا ويميتنا، فأخلصوا له العبادة وحده دون من سواه، وهذا هو الطريق البين الواضح الموصل إلىٰ الله جل في علاه.

[٣٧] ثم أخبر جل وعلا أن الأحزاب وفِرَق الضلال اختلفت في شأن عيسىٰ عليه السلام؛ فمنهم من جفاه ولم يعترف برسالته ورماه وأمه بالنقائص والعيوب، وهم اليهود المغضوب عليهم، ومنهم من غلا فيه وأنزله فوق منزلته وهم النصارىٰ الضّالون الذين زعم بعضهم أنه إله، وزعم بعضهم أنه ابن الله، وزعم آخرون منهم أنه ثالث ثلاثة -تعالىٰ الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا-؛ ثم قال سبحانه مهددًا هؤلاء المجرمين: فويل للذين كفروا وجحدوا بآيات الله ورسله من مشهد يوم القيامة، ذلك المشهد العظيم.

[٣٨] ثم بين سبحانه أن هؤلاء الكفار سوف يكونون أقوىٰ وأشدَّ سمعًا وبصرًا يوم القيامة، يوم يأتون إليه سبحانه للجزاء والحساب!، ولكنْ الظالمون المجاوزون حدودهم في هذه الحياة الدنيا في ضلال بيّن واضح.

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾

[٣٩] ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يخوِّف النّاس من يوم الحسرة حين يُقضىٰ الأمر ويُفرَغ من الحساب، ويصير أهل الجنة إلىٰ الجنة وأهل النار إلىٰ النار، فيندم الشقي حينها ندامة يتقطع منها قلبه، ولا تنفعه حينها الندامة، فأنذرهم بذلك يانبي الله، فإنهم اليوم في حياتهم الدنيا في غفلة عمّا ينتظرهم من كُرَب وأهوال، وهم لا يؤمنون ولا يصدّقون.

[٤٠] ثم بين جل وعلا بما يدل علىٰ شمول قدرته فأخبر أنه هو وحده الذي يرث الأرض ومن عليها، وأن مرجع جميع الخلائق إليه وحده، وأن حسابهم عليه وحده؛ فيجازيهم علىٰ أعمالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ.

[٤١] ثم أمر سبحانه وتعالىٰ نبيه محمد ﷺ أن يذكر لقومه في هذا القرآن قصة أبي الأنبياء إبراهيم الخليل الأواب الحليم الكريم عليه السلام، الذي بالغ في الحرص علىٰ دعوة أبيه وقومه؛ فنوَّع الأساليب وذكر المحاسن في الإيمان وعاقبته، والمساوئ في عبادة الأصنام أو الشمس والقمر؛ فقال تعالىٰ: وأخبر يانبي الله قومك أنَّ إبراهيم عليه السلام كان من أعظم الأنبياء الصادقين المخلصين في أقواله وأعماله، وقد اصطفاه الله بالنبوة والخِلَّة وجعله من أولي العزم من الرسل.

[٤٢] ثم اذكر يا نبي الله لقومك يوم أن قال إبراهيم لأبيه آزر: يا أبت لماذا تتوجه بالدعاء والتقرب بأنواع القربات إلىٰ هذه الأصنام الجامدة التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تدفع عنك شيئًا، ولا تضر ولا تنفع.

[٤٣] ثم قال إبراهيم لأبيه: يا أبت إن الله أكرمني بالعلم النافع والهدىٰ الذي لم يصلك ولم تعرفه؛ فاقبل مني واتبعني إلىٰ ما أدعوك إليه من التوحيد والمعتقد السليم، الذي يوصلك إلىٰ طريق السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة.

[٤٤] وقال إبراهيم لأبيه أيضًا: ويا أبتِ لا تعبد الشيطان بطاعته في اتخاذ هذه الأصنام آلهة من دون الله، ولا تتخذه وليًّا من دون الله، فإنه قد عصىٰ الله وفسق عن أمره، وخرج عن طاعته.

[٤٥] وقال إبراهيم أيضًا: ويا أبتِ إني أخاف عليك - إن بقيت علىٰ شركك وكفرك - أن يمسّك عذاب من الرحمن، فتكون للشيطان وليًّا وقرينًا في الدنيا والآخرة.

[٤٦] فقال له أبوه: أكاره أنت آلهتي يا إبراهيم ومعرض عنها؟! لئن لم تكف عن سبّ آلهتي ودعوتي لتركها، لأقتلنك رجمًا بالحجارة، فاذهب عني الآن فلا أريد رؤيتك، واتركني زمانًا طويلًا من الدهر.

[٤٧] فقال إبراهيم لأبيه: سلام عليك يا أبتِ، وتحية وداع ومتاركة لك، فلن ترَ مني ما تكره، وسأدعو الله لك بالمغفرة، إن الله كان بي لطيفًا رحيمًا رؤوفًا، لا يرد دعائي، ولا يخيب رجائي.

[٤٨] ثم قال إبراهيم عليه السلام: وسوف أهاجر بديني فأترككم وأفارقكم أنتم وأصنامكم التي تعبدونها من دون الله، وأدعو ربي موحدًا مخلصًا له ديني، عسىٰ الله أن يسعدني بإجابة دعائي، ولا يخيب فيه كبير رجائي.

[٤٩] فلمّا هاجر إبراهيم عليه السلام وترك قومه وما يعبدون من دون الله؛ وهب الله له الذرية الصالحة من زوجته سارة عليها السلام، فوهب الله له إسحاق، ثم وهب له من إسحاق يعقوب، وجعلهما ممن اصطفىٰ من الأنبياء.

[٥٠] ثم بين سبحانه أنه أعطاهم وأغدق عليهم من رحمته التي تشمل العلم النافع والعمل الصالح والذرية الطيبة، وجعل لهم ذكرًا حسنًا عاليًا، وثناء جميلًا ظاهرًا علىٰ ألسنة العباد.

ومن فضل الله علىٰ إبراهيم عليه السلام أنه استجاب لطلبه حينما قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء:٨٣ - ٨٥]؛ وأكرمه سبحانه بأن جعله أُمَّة وقدوة لمن بعده، وجعل الأنبياء الذين جاءوا بعده كلهم من ذريته ما عدا لوط عليه السلام، أما دعوته لأبيه: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء:٨٦]؛ فلم تستجب له.

[٥١] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يذكر لقومه في هذا القرآن قصة موسىٰ عليه السلام، وأن يخبرهم بأن الله اختاره واصطفاه وأكرمه بأن جعله رسولًا نبيًّا من أولي العزم من الرسل.

وَنَدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن
رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ
صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ
كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن
ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ
خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا
﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ
وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ
بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا
سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى
نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ
مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

[٥٢] ثم أخبر جل وعلا أنه نادىٰ موسىٰ عليه السلام من ناحية جبل الطور بسيناء، وأنه قرّبه وناجاه، فسمع موسىٰ كلام الله جل في علاه.

[٥٣] ثم أخبر سبحانه أن من رحمته بنبيه موسىٰ عليه السلام أن وهب لأخيه هارون النبوة حسب طلبه لكي يساعده علىٰ أمره ويعينه علىٰ نشر دعوته.

[٥٤-٥٥] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يذكر لقومه في هذا القرآن قصة إسماعيل عليه السلام، وأن يخبرهم أنه كان صادقًا في وعده، فلم يخلف وعدًا قط، وبأن الله أكرمه بأن جعله رسولًا نبيًا. وأنه كان مقيمًا لأمر الله علىٰ أهله؛ فيأمرهم بأداء الصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، ويأمرهم بأداء الزكاة المتضمنة الإحسان إلىٰ العبيد، وكان عند ربه مرضيًّا، ممن ارتضىٰ الله لهم القرب والولاية.

[٥٦-٥٧] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يذكر لقومه في هذا القرآن قصة إدريس عليه السلام، وأن يخبرهم بأن الله جمع له بين الصديقية والاصطفاء للوحي والاختيار للرسالة. وأن الله رفع ذكره بين العالمين، وأنزله منزلة عالية.

[٥٨] واعلم يارسول الله أن هؤلاء الأنبياء الذين ذكرهم الله لك: هم الذين اصطفاهم الله لتلك المنزلة العالية الرفيعة من بني آدم، ومن ذرية من حملنا مع نوح في السفينة، ومن ذرية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام، وممن اخترنا وهدينا لمعرفة الطريق الموصلة إلينا، فهؤلاء إذا قُرِئت عليهم آيات الرحمن الدالة علىٰ وحدانيته وعظمته، والدالة علىٰ الإخبار باليوم الآخر وما فيه من وعد ووعيد؛ إذا قُرئت عليهم خضعوا وأذعنوا وخشعوا ثم خرُّوا سجَّدًا لله باكين من خشيته.

[٥٩] وبعد أن ذكر جل وعلا هذه السلسلة الذهبية من الأنبياء، ذكر أنه أتىٰ بعدهم أقوام بدّلوا وغيروا؛ فمنهم من ترك الصلاة بالكلية، ومنهم من ضيع بعض أوقاتها، ومنهم من ترك أركانها وواجباتها، وأيضًا اتّبعوا شهوات أنفسهم، فهؤلاء أخبر سبحانه أنهم سوف يلقون غيًّا، أي: عذابًا شديدًا مضاعفًا في جهنم. قال ابن مسعود رضي الله عنه: الغي هو: وادٍ في جهنم. وهذه الآية دليل واضح وصريح علىٰ كفر تارك الصلاة، وكذلك مع قوله ﷺ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**»(١)، والجمهور: علىٰ أن من جحد كونها فرضًا هو الذي يكفر فقط.

[٦٠-٦١-٦٢] ثم استثنىٰ جل وعلا من هؤلاء من تاب من الشرك والبدع والمعاصي وعاد إلىٰ ربه، وآمن بالله ورسوله ﷺ، وعمل الأعمال الصالحة المشروعة؛ فهؤلاء يقبل الله توبتهم، ويدخلهم الجنة، ولا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئًا. وهذه الجنات التي يدخلونها لهم فيها إقامة دائمة فلا يتحولون عنها، ولا يزولون، وقد وعدهم الله هذه الجنات بالغيب فآمنوا بذلك وصدّقوا، فكيف لو رأوها؟! لكانوا أشدّ لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة، وأكثر لها سعيًا، ولذلك امتدح الله إيمانهم بالغيب، وليعلم الجميع أن وعد الله آت لا محالة، إن الله لا يخلف الميعاد. ثم بين سبحانه أن أهل الجنة لا يسمعون في الجنة كلامًا باطلًا ولا لغوًا لا فائدة فيه؛ بل لا يسمعون إلّا كل قول سالم من كل عيب، فيسمعون ذكر الله، والتحية وكلام السرور والفرح والحبور، ولهم رزقهم فيها من الطعام والشراب حسب ما يشتهون، صباحًا ومساء.

[٦٣] واعلموا أيها الناس أن تلك الجنة الموصوفة بتلك الصفات الحسنة الجميلة؛ هي التي أورثها الله لعباده المتقين الذين جعلوا بين الله وبين عذابه وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

[٦٤] كان جبريل عليه السلام قد احتبس أيامًا عن النبي ﷺ لم ينزل عليه، بعد أن سأله المشركون عن أصحاب الكهف، وذي القرنين، والروح، فلما نزل جبريل عليه السلام قال له النبي ﷺ: «**ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا**»(٢)؛ فقال جبريل للنبي ﷺ: اعلم يانبي الله أن الملائكة لا تتنزل من السماء إلىٰ الأرض إلّا بأمر من الله لها، وأنه ليس لها من الأمر شيء؛ بل الأمر له سبحانه في جميع الأمور الماضية والمستقبلة والحاضرة؛ ثم قال له: واعلم يانبي الله أن الله ما كان نسيًّا ولا مهملًا لشيء من أعمالكم.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٩٣٧)، والترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وابن ماجه (١٠٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٣١).

رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِۦ ۚ
هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ الْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ
أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ
وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَٰطِينَ ثُمَّ
لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ
شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ
هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ
حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّٰلِمِينَ
فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَىُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾
وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾
قُلْ مَن كَانَ فِى الضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا
مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ۗ
وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

[٦٥] واعلم يانبي الله أن ربك المالك لجميع السماوات والأرض وما بينهما لم يكن ناسيًا لشيء من أمور عباده، ولهذا عليك أن تعبد الله وتستمر في عبادته أنت ومن اتبعك من المؤمنين، وتصبر علىٰ مشاق الدعوة وما يأتيك من الأذىٰ من قومك بسببها، فإنه الإله الذي لا نظير ولا مثيل له في أسمائه وصفاته وأفعاله؟ كما قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]. وهذه الآية تفيد أن إثبات صفات الكمال لله تأتي مفصلة، أما نفي صفات النقص فتأتي مجملة.

[٦٦-٦٧] ثم أخبر جل وعلا بمقولة ذلك الإنسان الكافر بالبعث بعد الموت الذي يقول: هل يعيدني الله حيًّا بعد الموت وبعد أن صرت رميمًا؟ إن هذا أمر مستحيل. فرد جل وعلا علىٰ مقالته الفاسدة قائلًا: ألا يذكر هذا الإنسان الكافر بالبعث أنا خلقناه من قبل، أي: من العدم، ولم يكن شيئًا مذكورًا؟ ثم ألا يعلم أن الذي قَدَرَ علىٰ خلقه أول مرة من العدم؛ فإنه قادر علىٰ إعادته وإحيائه بعد الموت؟.

وهذه الآية تُذكّر بموقف أُبي بن خلف الذي فرك عظمًا باليًا ثم نفخه ثم قال: أتزعم يامحمد أن ربك يحيي هذه، وأنني سأعود إلىٰ الحياة مرة أخرىٰ بعد فنائي وتفرق أجزائي؟ فأجابه ﷺ بقوله: «**نعم، ويدخلك النار**»(١).

(١) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٢٤٩٨).

[٦٨-٧٠] ثم أقسم سبحانه بذاته: أنه سيجمع هؤلاء المكذبين بالبعث مع شياطينهم الذين أغووهم فأطاعوهم، ثم يحضرهم حول جهنم جاثين علىٰ ركبهم من شدّة ما يرون من الشدائد والأهوال. ثم ليخرج سبحانه بالنزع من كل فرقة أشدّهم تمردًا علىٰ الإيمان والتوحيد، وأجرأهم علىٰ الشرك والتكذيب والتنديد، فنقدمه إلىٰ العذاب. ثم أخبر سبحانه أنه علىٰ علم تام بالذين هم أولىٰ بدخول النار وتذوق عذابها، ومقاساة حرها وسَمُومها.

[٧١] واعلموا أيها الناس أنه ما منكم من أحد إلّا سيرد جهنم، وذلك بالمرور عليها من علىٰ الصراط، وأن هذا الأمر قد كتبه الله وقضاه وقدّره أزلًا في اللوح المحفوظ - فاللهم سلّم سلّم -، ومن الحكمة في ذلك: أن يشاهد المؤمنون ما أعدَّ الله لأعدائه من العذاب، وأن هذه النار التي يمرون عليها لا تضر المؤمنين؛ لأنهم سوف يمرون عليها مر البرق كما أخبر بذلك النبي ﷺ، وكما أن الله جعل النار التي أوقدت لإبراهيم عليه السلام سلامًا عليه؛ فهو سبحانه قادر أن يجعل تلك النار التي يمر عليها المؤمنون يوم القيامة لا تضرهم.

[٧٢] ثم أخبر سبحانه أنه سوف ينجّي من هذه النار أولئك الذين اتقوا؛ فآمنوا بالله وجعلوا بينهم وبين نار الله وقاية بتوحيده وفعل أوامره واجتناب نواهيه، وأما الذين تجاوزوا حدّهم بالشرك والمعاصي؛ سوف يتركهم الله في نار جهنم جاثين علىٰ ركبهم من هول ما أحاط بهم من العذاب.

[٧٣] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أنه إذا قُرِئت علىٰ الكفار الآيات البينات الواضحات الدالات علىٰ وحدانية الله جل وعلا وَصِدْقِ رسوله ﷺ؛ قال الذين كفروا بالله وجحدوا رسوله ﷺ: أي الفريقين - نحن والمؤمنون - أفضل منزلًا في الدنيا وأكثر أموالًا وأولادًا، وأحسن نديًّا، أي: مجتمعًا!، وتلك حجة باطلة ودليلٌ فاسد؛ فالدنيا يعطيها الله لمن يأخذ بالأسباب مؤمنًا كان أو كافرًا.

[٧٤] ثم بين سبحانه أن دليل فساد حجتهم، وبطلان فريتهم؛ أنه أهلك قبلهم أممًا كثيرة كانوا أحسن منهم متاعًا، وأوفر منهم مالًا، وأحسن منهم منظرًا.

[٧٥] وقل يانبي الله لهؤلاء الكفار: اعلموا أن من كان في ضلاله وشركه وغيّه سائرًا، وعن الحق والتوحيد معرضًا؛ فإن الله يمهله ويمده في ضلاله ويزيده فيه حبًّا، وذلك استدراجًا له لاختياره الضلالة علىٰ الهدىٰ، حتىٰ إذا رأىٰ هؤلاء الضّالون حقيقة الأمر: إما العذاب في الدنيا بقتل أو غيره، وإما الساعة باقتراب عذابهم في الآخرة؛ فسيعلمون حينها ويتيقنون أنهم هم شرّ مكانًا، وأنهم أضعف جندًا، وهذا العلم لا يفيدهم شيئًا.

[٧٦] ثم أخبر سبحانه أنه يزيد عباده الموحدين الذين اهتدوا؛ هداية علىٰ هدايتهم، فييسّر لهم العلم النافع والعمل الصالح، وأخبر أن الأعمال الصالحة الباقية التي يبقىٰ أثرها ويستمر أجرها وثوابها فهي أحسن مرجعًا وثوابًا عند الله.

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

[٧٧-٧٨-٧٩-٨٠] يخاطب جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ ويقول له: هل رأيت يانبي الله هذا الكافر الذي كفر بما أُنزل عليك من الآيات وأنكر الوحي، وهو العاص بن وائل عندما أنكر البعث وسخر به وبالذي طالبه بِدَيْنٍ له عليه استصغارًا واحتقارًا له، وهو خبّاب بن الأرت؛ حيث قال لخباب: لا أعطيك حقك حتىٰ تكفر بمحمد، فقال خباب: لا والله لا أكفر بمحمد حيًّا ولا ميتًا ولا حين نُبعث، فقال العاص: إذًا فانتظرني إلىٰ ذلك اليوم فإنه سيكون عندي مال وولد وسوف أعطيك حقك. فرد عز وجل عليه قائلًا: هل اطلع علىٰ الغيب فعرف أنه سيكون له يوم القيامة مال وولد؟ أم جاءه عهد ووعد من الله أنه سيكون له ذلك؟. كلا سنكتب ما يقوله من الكذب والافتراء علىٰ الله، وسوف نزيد له أنواع العقوبات كما ازداد من التكذيب والكفر والضلال. وسوف نميته فيُسلب المال والولد، ويأتينا يوم القيامة وحده منفردًا لا مال له ولا منعة ولا أنصار.

[٨١-٨٢] ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء المشركين اتخذوا من دون الله آلهة باطلة يزعمون أنها ستعزّهم وتنصرهم وتمنعهم من عذاب الله. وفي الحقيقة: ليس الأمر كذلك؛ بل في يوم القيامة ستكفر بهم هذه الآلهة وستجحدهم، وسيكونون أعداءً لهم يخاصمونهم ويوردونهم المهالك.

[٨٣-٨٤] ثم قال سبحانه لنبيه محمد ﷺ: ألم تعلم يانبي الله أنا عاقبنا الكافرين عقوبة شديدة لهم - بسبب إعراضهم وإصرارهم علىٰ الكفر-؛ حيث سلّطنا عليهم الشياطين، وقيضناها لهم تغويهم وتدفعهم إلىٰ فعل المعاصي دفعًا!! لأنهم رفضوا الإيمان وناصبوك العداء. فلذا لا تستعجل لهم العذاب، فإن لهم أيامًا معدودة، وساعة محدودة، لا يستقدمون عنها ولا يستأخرون.

[٨٥-٨٦] واذكر يارسول الله للناس ذلك اليوم الذي يُجمع فيه المتقون الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ حيث يُجمعون إلىٰ جنة الرحمن وفودًا مبجَّلين معزَّزين مكرَّمين. أما أولئك الذين أجرموا في حق الله بالشرك والتنديد فسوف يساقون إلىٰ جهنّم سوقًا شديدًا وهم عطاش أذلاء صاغرون.

[٨٧] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المشركين لا يملكون الشفاعة، وليست لهم، إنما الشفاعة لمن وحَّد الله وآمن برسوله ﷺ؛ فأولئك هم أصحاب العهد الذين قاموا به وأدوه، فيكرمهم الله بالشفاعة، فيَشفعون، ويُشفَع لهم، نسأل الله الكريم من فضله أن يدخلنا برحمته في عباده الصالحين.

[٨٨-٨٩-٩٠-٩١] ثم أخبر جل علا عن مقولة الكفار الذين يقولون: بأن الله اتخذ ولدًا؛ حيث قالت اليهود: عزيز ابن الله، وقالت النصارىٰ: المسيح ابن الله، وقال بعض العرب: الملائكة بنات الله. فشنع الله قولهم وجرّمهم؛ حيث قال: لقد جئتم جُرمًا عظيمًا. ثم بين سبحانه أن هذه الفرية تكاد السماء تتشقق من فظاعتها، وتتصدّع الأرض وتسقط الجبال سقوطًا هائلًا من هول وعظم ما قالوا. لأن هؤلاء المجرمين ادعوا لله الولد؛ فتعالىٰ الله عمّا يقول المجرمون علوًّا كبيرًا.

[٩٢] ثم أخبر جل وعلا عن نفسه أنه لا ينبغي ولا يليق بعظمته وجلاله أن يتخذ ولدًا؛ لأنه الغني عن كل أحد، وأن كل من في السماوات والأرض بحاجة له سبحانه وتعالىٰ، ومعلوم أن الآباء يطلبون الأولاد ليحملوا اسماءهم ويساندوهم في ضعفهم وشيخوختهم، وينفذوا وصاياهم بعد موتهم، وهذه كلها منتفية بالنسبة لله عز وجل.

[٩٣-٩٤-٩٥] ثم بيّن جل وعلا أن كل من في السماوات والأرض آتيه يوم القيامة عبدًا ذليلًا خاضعًا له. وأنه سبحانه قد أحاط بكل المخلوقات، وعلم عددهم، فلا يخفىٰ عليه أحد منهم. ثم بين أن كل واحد من النّاس سوف يأتيه يوم القيامة وحده، وسيقف بين يديه وحده؛ لا ولد معه ولا مال ولا معين ولا نصير، ولا يكون مع الإنسان في ذلك الموقف إلّا عمله الذي يجازىٰ عليه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ
ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ
ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم
مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

سُورَةُ طٰهٰ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً
لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾
ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ
فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ
ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا
فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ
أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ
أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾

[٩٦] ثم ذكر جل وعلا نعمة من نعمه علىٰ عباده الذين آمنوا بالله وصدّقوا رسوله ﷺ، وعملوا الأعمال الصالحة المشروعة، أنه سيجعل لهم محبّة ومودة في قلوب عباده.

[٩٧] ثم أضاف سبحانه نعمة كبرىٰ علىٰ نبيه محمد ﷺ، وهي أنه جعل هذا القرآن سهلًا يسيرًا عليه وعلىٰ أمته؛ حيث جعله بلسانه، أي: باللغة العربية؛ وهذا التيسير الذي جعله الله لهذا القرآن لكي تبشر به عباد الله الذين اتقوا ربهم بعمل الطاعات وترك المنهيات، وتخوِّف به الكفار المكذبين ذوي الخصومة الشديدة بالباطل، حتىٰ تقوم عليهم المحجة، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيَّ عن بينة.

[٩٨] ثم ختم جل وعلا السورة ببيان أنه أهلك أممًا كثيرة طغت وتجبرت وحاربت الدعوة قبل أمتك يانبي الله؛ فهل تشعر بأحد منهم أو تراه؟ أو تسمع له حتىٰ ولو صوتًا خفيفًا؟!.

سورة طه

سورة طه مكيّة وآياتها خمس وثلاثون ومائة آية.

[١] قوله: ﴿طه﴾، قيل: اسم للسورة، وقيل: هو أحد أسماء النبي ﷺ، ويؤيد قولهم إسناد الخطاب إليه؛ حيث قال في الآية التي بعدها: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾، فالكاف في قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾، للمخاطب به وهو: طه، والجمهور علىٰ خلاف هذا القول، ويرون أنها مثل الحروف المقطعة في أوائل السور.

[٢-٣-٤] أخبر جل وعلا في بداية هذه السورة نبيه ﷺ أنه ما أنزل عليه القرآن للإفراط في إرهاق نفسه وإتعابها، وإنما المطلوب منه ﷺ هو البلاغ والدعوة؛ وكذلك القصد في العبادة والتهجد. ثم بين سبحانه أنه أنزل هذا القرآن تذكرة وموعظة لمن يطلب رضا الله ويخشىٰ عقابه. وأخبر أيضًا أن هذا القرآن تنزيل من العلي العظيم الذي خلق الأرض والسماوات العلىٰ.

[٥] ثم أخبر جل وعلا عن عظمته وكبريائه بأنه ارتفع وعلا، واستوىٰ استواءً يليق بجلاله وعظمته من غير تكييف ولا تمثيل.

ومعظم الفرق الإسلامية تأوِّل قوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾، فتقول: (استولىٰ)؛ ما عدا أهل السنة والجماعة؛ فيقولون: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾، أي: علا وارتفع واستوىٰ استواءً يليق بجلاله وعظمته، وهو استواء له كيفية ولكن لا نعرفها كما أننا لا نعرف كيفية ذاته سبحانه، وهذه الكيفية لم يُطلع الله عليها أحدًا من البشر، وقد روي عن أحمد ومالك أنهما قالا: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والبحث عنها بدعة). قلت هذا لأن هناك فرقًا من المسلمين يقولون: لا كيفية له، أي: أنهم يعبدون عدمًا. **ثم يقال للذين يقولون:** (استوىٰ)، أي: (استولىٰ): أليس الله كان مستوليًا علىٰ العرش وغيره قبل خلق السماوات والأرض لمّا كان عرشة علىٰ الماء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[هود:٧]؟!.

[٦] ثم بين سبحانه أن هذا الرحمن وهو الله له ملك السماوات والأرض وملك ما بينهما، وما تحت الأرض والتراب.

[٧] ثم أخبر جل وعلا نبيه ﷺ أنه سواء جهر بالكلام أو أخفاه؛ فإن الله يعلم ذلك، لأنه يعلم السر وهو الكلام الخفي الذي يُسِرُّ الرجل به لصاحبه، ويعلم ما هو أخفىٰ من السر، وهو ما يحدِّث الإنسان به نفسه، أو ما يخطر علىٰ باله.

[٨] واعلموا أيها الناس أن هذا الرب العظيم هو المعبود بحق، فلا معبود بحق إلّا هو، وأن له سبحانه الأسماء الحسنَةَ التي تدلُّ علىٰ كمال الحمد والمدح له، وتدل علىٰ أكمل الصفات وأعظمها وأجَلِّها.

[٩-١٠-١١-١٢] ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: هل أتاك يانبي الله خبر موسىٰ بن عمران الذي قدم من مدين إلىٰ مصر؛ حيث رأىٰ نارًا مشتعلة فقال لأهله: ابقوا في مكانكم لقد رأيت نارًا لعلي أحضر لكم منها شعلة تستدفئون بها؛ أو أجد عندها من يدلني علىٰ الطريق؛ لأنه اشتبه عليه طريق العودة لمصر، وهذه النار التي رآها موسىٰ هي في الحقيقة نورٌ خَلَقَهُ الله فظن أنه صادر من نار مشتعلة؛ فَذَهَبَ إليه ليجلب الدفء إلىٰ أهله؛ فجلب لهم ولقومه الدفء الأهم والأعظم وهو الإيمان والإسلام بعد أن شرّفه الله وأكرمه بكلامه واصطفائه. فلمّا وصل موسىٰ إلىٰ هذا النور ناداه الله. فقال له: ياموسىٰ إني أنا ربك أُكلِّمُك؛ فاخلع نعليك، وتهيأ لمناجاتي، واعلم أنك بوادٍ مُطَهَّر، وهو وادي طوىٰ – بأرض سيناء –.